

هدية
مكتبة عبد الله كنون

تفسير سورة يس

للأستاذ عبد الله كنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ① وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ②
إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ③ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ④

اختلف في هذا اللفظ أعني (يَس) ومن أحسن ما قيل فيه إنه من أسماء النبي (ص) وقيل معناه يا إنسان، وهو كذلك خطاب له (ص) وقوله: (وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ) هو قسم على صدق الرسالة المحمدية والمقسم عليه هو قوله: (إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ (لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) وناهيك به من قسم للخالق عز وجل على كتابه العزيز، فليس بعده من دليل على ثبوت رسالته (ص) لولا الجحود والعناد الذي كان عليه الكفار والمشركون، والأمر في ذلك جار مجرى التأكيد في اللغة العربية بالقسم وإن واللام الداخلة على المقسم عليه (على صراط مستقيم) أي على منهج قويم فالجملة خبر ثانٍ لأن داخل في القسم.

تَنْزِيلِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ⑤ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمُ آبَاؤُهُمْ بِقَسَمٍ
غَافِلُونَ ⑥ لَفَنَدَ حَوَّالِقُولٍ عَلَى أَكْثَرِهِمْ قَسَمًا لَا يَوْمِنُوهُ ⑦

يعني أن ما جئت به هو (تنزيل) ووحي من الله (العزيز الرحيم) ومن رحمته إرسال الرسل إلى عباده ليدلوهم على الله والطريق الموصِّل إلى رضاه كما قال (لِنُنذِرُ) أي لننذر وتعلم (قوماً) وهم العرب وإن كان لا مفهوم له لأن رسالته (ص) عامة للعرب وغيرهم (ما أنذر آباؤهم) يعني لم يبعث فيهم نذير قبلك (فهم غافلون) لذلك فما نافية. ويصح أن تكون ما بمعنى الذي أي لننذرهم بالأمر الذي أنذر آباؤهم به وهو البعث والحساب على ما قدموا في الحياة الدنيا، إغذاراً وإقامة للحجة عليهم كما قال تعالى: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا» ويراد بآبائهم حينئذ الأبعدون الذين بعث فيهم إبراهيم وبنوه عليهم السلام (لقد حق القول) أي وجب العذاب (على أكثرهم) لعدم إيمانهم وعكوفهم على الأصنام

وَتَفْصِيهِمْ لَشَرْعِ اللَّهِ كَمَا قَالَ : (فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) بِاللَّهِ وَالرُّسُلِ وَمَا جَاءُوا بِهِ مِمَّا
فِيهِ صَلَاحٌ مَعَاشِهِمْ وَمُعَادِهِمْ فَبِهِي كَالآيَةِ الْآخَرَى الَّتِي تَقُولُ : «وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ
الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ».

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنُقِهِمْ أَغْلَالًا قَطْرًا إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ⑧ وَجَعَلْنَا
مِنْ تَحْتِهِمُ أَيْدِيَهُمْ سُدًّا أَوْرَاقَهُمْ سُدًّا إِذَا غَشَيْنَا نَضِغُ فَنُحْضِرُ ⑨

يَعْنِي أَنَّ الْكُفَّارَ لَا مُتَنَاعِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ هُمْ كَمَنْ جَعَلَ فِي عُنُقِهِ غُلًّا يَمْنَعُهُ
مِنَ الْإِلْتِفَاتِ فَهُوَ لَا يَرَى مَا حَوْلَهُ وَالْكَلَامُ عَلَى التَّشْبِيهِ (وَالْأَغْلَالُ) جَمْعُ غُلٍّ وَهُوَ
الْقَيْدُ الَّذِي يُجْعَلُ فِي الْعُنُقِ وَيُضَمُّ الْيَدَيْنِ إِلَيْهِ كَمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى : «وَلَا
تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ» تَشْبِيحًا عَلَى الْبَخِيلِ الَّذِي لَا يَنْفِقُ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ (فَبِهِي) أَيِ الْأَغْلَالِ (إِلَى الْأَذْقَانِ) جَمْعُ ذَقْنٍ وَهُوَ مُنْبِتُ اللَّحْيَةِ
وَذَلِكَ أَنَّ الْغُلَّ إِذَا كَانَ وَاسِعًا عَرِيضًا وَضَلَّ إِلَى الذَّقْنِ فَكَانَ أَشَدَّ عَلَى الْمَغْلُولِ
(فَهُمْ مُقْمَحُونَ) أَيِ رَافِعُوا رُؤُوسَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ خَفْضَهَا شَبَّهُهُمْ فِي عَدَمِ الْإِدْعَانِ
لِلْإِيمَانِ بِمَنْ هَذِهِ حَالُهُ (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدًّا) أَيِ حَاجِزًا مَانِعًا لَهُمْ
مِنَ الْإِيمَانِ (وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدًّا) كَذَلِكَ حَائِلًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ التَّفْصِي مِمَّا هُمْ عَلَيْهِ
مِنَ الْكُفْرِ (فَأَغَشَيْنَاهُمْ) أَيِ غَطَيْنَا عَلَى أَبْصَارِهِمْ وَالْمَعْنَى كَذَلِكَ عَلَى التَّمْثِيلِ
(فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) سَبِيلَ الْهُدَى وَلَا يَسْتَفْعُونَ بِأَبْصَارِهِمْ.

وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ الْآيَةَ شَبَّهَتْ الْكُفَّارَ فِي أَمْتِنَاعِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْهُدَى بِمَنْ غُلَّتْ
يَدُهُ فِي عُنُقِهِ وَعَمِيَ بَصَرُهُ بِجَافِعٍ أَنْ كُلًّا مُنْعَوًى مِنَ الْوُضُولِ إِلَى الْمَقْصُودِ مَعَ
التَّلْمِيحِ إِلَى مَا يَحْصُلُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْأَغْلَالِ وَالسَّلَاسِلِ الَّتِي يَقَادُونَ فِيهَا إِلَى
جَهَنَّمَ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِسْنَادَ هَذِهِ الْأَفْعَالِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أُسَاسٍ

أَنَّهُ وَاهِبُ الْقُوَى وَالْقُدْرِ، وَإِلَّا فَالْمَسْئُولِيَّةُ الْمُتَرْتِبَةُ عَلَى التَّكْلِيفِ وَالْإِخْتِيَارِ لَا تُعْفَى
الْإِنْسَانُ مِنَ الْحِسَابِ وَالْحِزَاءِ.

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑩ إِنَّمَا
تُتَبِّرُ مَا اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ بِالشَّيْءِ
بِمَغْفِرَةٍ وَأَخْرَجَ كَرِيمًا ⑪

هذا إعلام من الله عز وجل لنبيه (ص) بما أطلع عليه من حال الكفار
المصرِّين على تكذيبه، وهو أن إنذاره لهم وعدمه سواء في كونهم لا يؤمنون. كما
قال (وسواء عليهم) أي في حقهم (أأنذرتهم) أي خوفتهم وحذرتهم من نتيجة الكفر
(أم لم تنذرهم) فهم (لا يؤمنون) عنادا وكفرا (إنما تنذر) أي إنما ينفع إنذارك (من)
اتباع الذكر أي القرآن وما جاء به من الهدى والنور (وخشي الرحمن بالغيب) أي خافه عز وجل
حيث لا يراه إلا هو فلم يعصه وإن كان خاليا (فبشرة بمغفرة وأجر كريم) مغفرة
لذنوبه وأجر حسن على أعماله الصالحة، وأعلاه الجنة والآية مبينة لفائدة الدعوة
فهي تقيم الحجة على المخالفين وتبطل عذرهم وتهدي المومنين إلى سواء الطريق
وتبشرهم بما لهم من حسن العاقبة والجزاء الأوفى.

إِنَّا نَحْنُ الْحَقُّ الْمُبِينُ وَنُكَتِبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ آخِذٌ
بِإِنَامٍ قَبِيرٍ ⑫

يقول تبارك وتعالى (إنا نحن نحيي الموتى) أي يوم القيامة، وهو إنذار
للكفار الذين لا يؤمنون بالبعث فإذا علموا أنهم مبعدون ومحاسبون على ما عملوا
فما أحراهم أن يفيثوا ويرجعوا عن غيهم (ونكتب ما قدموا) من أعمال في حياتهم
وذلك في صفحهم التي يوتونها يوم يبعثون للحساب بأيمانهم أو بشمائلهم

(وآثارهم) أي ما تركوه بعدهم من أثر سيئ أو حسن على حسب ما جاء في الحديث ، من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة (وكل شيء) مما هو كائن أو كان (أحصيناه) أي أثبتناه وضبطناه (في إمام مبين) أي كتاب هو بمثابة الإمام لسائر الكتب مبين لجميع الأمور، وهو اللوح المحفوظ وكل بالنصب بفعل يفسره أخصيناه على سبيل الاشتغال.

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ابْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعُزِّرْنَاهُ بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَٰهُكُمُ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ فَأَلْهَمْنَا الْتَّمُزَ الْإِبْشَرَ قَتَلْنَاهُ وَمَا أَنْزَلْنَا الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْتُمْ بِالْآتِكَةِ بَرُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَٰهُكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ إِلَّا الْبَلَاغَ الْغَيْرَ ﴿١٧﴾

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، (واضرب لهم مثلاً) أي اذكر لقومك قصة شبيهة بحالهم على سبيل الإنذار (أصحاب القرية) أي إحدى القرى من غير تعيين، قال فيها للجنس (إذ جاءها المرسلون) من عنده تعالى وقيل إن القرية هي أنطاكية والرسل رسل عيسى ولا يصح (إذ أرسلنا إليهم اثنين) من الرسل (فكذبوهما فعزنا) أي قوينا الرسولين (بثالث فقالوا إننا إليكم مرسلون) من عند الله لتؤمنوا به وتتركوا عبادة الأصنام فقال لهم أصحاب القرية (إن أنتم أنتم) (إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء) على أحد أي من رسالة يبلغها إلى الناس وهذه هي شبهة المكذبين بإرسال الرسل كما قال تعالى في آية أخرى «ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهودنا» إذ كانوا يعتقدون أن الرسالة لا تكون حقاً إلا إذا أتى بها الملائكة، أو كانت لعموم الناس كما في قوله تعالى «وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا» ولهذا واجهوا رسل الله بقولهم (إن أنتم إلا تكذبون) فيما تزعمون (قالوا) أي الرسل

(ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين) أكدوا كونهم مرسلين من الله وأن ما عليهم هو البلاغ الواضح المبين لرسالتهم فإن استجابوا لها فازوا ونجوا وإلا حق عليهم العذاب.

قَالُوا إِنَّا تَكْثِيرُنَا بِكُمْ لَيْسَ لَكُمْ تَنْفَعُ التَّزْجِمَاتُكُمْ وَلَيَمْسَسَنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑱ قَالُوا هَازِلُكُمْ مَعَكُمْ إِنْ تَخَظُّونَ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ⑲

لم يؤثر عذاب الحوار الهادئ في القوم شيئا، بل صعدوا عنادهم وجابهوا رسل الله بقولهم (إنا تطيرنا بكم) أي تشاء منا بمجيئكم و (لئن لم تنتهوا) عن قولكم (لنرجمنكم) أي لنقتلنكم رجما بالحجارة (وليمسنكم) أي يصيبكم. (منا عذاب أليم) أي مؤلم (قالوا) أي الرسل (طائركم معكم) أي شؤمكم من أنفسكم (أئن ذكرتم) أي أظيترتم بسبب أنكم ذكرتم وخوفتم من عذاب الله (بل أنتم قوم مسرفون) على أنفسكم ساعون في هلاكها، وقولهم هذا مثل قول قوم فرعون «فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه، ألا إنما طائركم عند الله».

وَجَاءَ مِنْ أَفْضَى الْقُرَيْيْنِ رَجُلٌ يَسْعَى فَإِلْفُومٌ ۖ اتَّبَعُوا ⑳ اتَّبَعُوا قَرَلًا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّصَفَّدُونَ ㉑ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ إِلَهًا يَخْلُقُ كَمَا يَشَاءُ ㉒ أَلَيْسَ لِي بِرَبٍّ عَزِيزٍ يُخْزِي ㉓ لَا تُخْزِي عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يُفْخِرُونَ ㉔ إِنْ يَدْعُوا إِلَىٰ آلِهِمْ خُلَافَتُهُمْ ㉕ أَفَلَا تَنْتَفِعُونَ بِرَبِّكُمْ فَإِنْ تَلَيْتُمْ فَرُومٌ يَعْلَمُونَ ㉖ يَمَّا عَجَّلَ لَهُ رَبُّهُ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمَكْرُمِينَ ㉗

يخبر تعالى أنه لما اشتد الموقف بين أصحاب القرية ورسول الله (جاء رجل من

أقصى المدينة يسمى) أي يشتد عدوا لما علم بتكذيب القرية للرسل وهمهم بقتلهم وكان رجلا مومنا فقال (يا قوم اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لا يسألكم أجرا) على تبليغ رسالة الله إليكم (وهم مهتدون) شهادة لهم بأنهم على الحق وأن اتّباعهم واجب ولا شك أن القوم ارتابوا في الرجل وسألوه هل أنت على دينهم فأجاب (وما لي لا أعبد الذي فطرني) أي أوجدني من العدم يعني وأوجدكم (وإليه ترجعون) بعد الموت فيجازيكم بعملكم (أأخذ من دونه آلهة) استفهام إنكاري موجه لقومه عسى أن يراجعوا صوابهم (إن يردن الرحمن بضر لا تنفع عني شفاعتهم شيئا) هذا وصف لآلهتهم التي يعبّثونها من دون الله فهي لا تنفع ولا تشفع (ولا ينقذون) من يعبدهم من شر ولا من عذاب (إني إذا لفي ضلال مبين) أي إن اتخذت آلهة من دون الله وعبدت من لا ينفعني شيئا ثم أعلن إيمانه بقوله للرسل (إني آمنت بربكم فاسمعون) أي اشهدوا علي بالإيمان، ولما سمع قومه هذا الكلام قتلوه كما يدل عليه السياق فدخل الجنة كما قال تعالى في حقه (قيل) له (ادخل الجنة) فدخلها و (قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي) أي بغفرانه تعالى لي فما مصدرية (وجعلني من المكرمين) تمنى أن يعلم قومه بما لقيه من عظيم الثواب عساهم يومنون.

وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ٢٨ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا ضَالَّةً فَجَاءَ أَهْلُكُمْ خَمِيزًا ٢٩ يَحْسِرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٣٠

المعنى أهلكنا أهل هذه القرية (وما أنزلنا على قومه) أي الرجل المومن الذي قتلوه (من بعده) أي من بعد موته (من جند من السماء) يعني الملائكة كما يتوهم الكفار ويخرجون النبي بطلب إنزال الملائكة معه (وما كنا منزلين) أي وما فعلنا ذلك من قبل فالأمر أهون مما يظنون (إن كانت إلا صيحة واحدة) وقعت بهم من السماء (فإذا هم خامدون) أي هالكون (يا حسرة على العباد) تذييل

للقصة بما يوجب الاشفاق على الإنسانية التي تنجح إلى الانحراف عن طريق الرشاد والاعراض عن يدعوها إلى الصلاح، وفي المقدمة دعوة الرسل، ولذلك قال (ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) يكذبونه ويجحدون ما جاء به من الحق.

هذا. والقصة في ظاهرها من قصص الأمم والرسل الذين قال الله فيهم «منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك» وحملها أكثر المفسرين على أهل أنطاكية وقالوا في الرسل إنهم رسل عيسى إليهم ولكن الرواية بذلك لا تصح وفي العقيدة الإسلامية لا يسمى مبعوثوا الأنبياء رسلا فضلا عن أن خطاب القوم يدل على أنهم كانوا من رسل الله لا من رسل عيسى لقولهم «إن أنتم إلا بشر مثلنا». وأن أنطاكية كانت أول قرية آمنت بعيسى فلم ينزل بها عذاب، نبه على هذا وما قبله ابن كثير وكذلك أشار إلى الوجه الأول ابن جزى والله أعلم.

النَّازِرَاتُ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ③١

وَأَكْثَرُ الْأَجْمَعِ لَدَيْنَا مَحْضَرُونَ ③٢

يَقُولُ تَعَالَى لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ وَسَائِرِ الْمُكَذِّبِينَ لِلرَّسْلِ (أَلَمْ يَرَوْا) أَيُّ يَعْلَمُوا (كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ) يَعْنِي الْأَجْيَالُ الْعَدِيدَةُ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الَّتِي هَلَكَتْ وَأَفْضَتْ إِلَى مُصِيرِهَا (أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ) أَيُّ لَا يَعُودُونَ إِلَى الدُّنْيَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَهَذَا مِنْ الْأُمُورِ الْمُحَقَّقَةِ الَّتِي لَا يَنْزَعُ فِيهَا إِلَّا بَعْضُ الْفِتَنِ الضَّالَّةِ كَالْمُعْتَقِدِينَ بِتَنَاسُخِ الْأَرْوَاحِ (وَإِنْ كُلٌّ) مِنْ تِلْكَ الْقُرُونِ الْهَالِكَةِ (لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) أَيُّ وَلَكِنَّهُمْ سَيُبْعَثُونَ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَى وَيَحْضَرُونَ لِلْحِسَابِ عَمَّا قَدَّمُوا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَيَجَازُونَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ جَزَاءً وَفَاقًا، فَحَقُّ هَؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ أَنْ يَغْتَبِرُوا بِالْقَوِيِّ وَمَا بَعْدَهُ، وَيُؤْمِنُوا بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلُ رَبِّهِمْ وَيَعْمَلُوا لِلتَّقَادُّمِ كَمَا يَعْمَلُونَ لِلْمَعَاشِ.

وَأَيَّةٌ لَهُمْ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْتُمْهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا قَائِمَةً يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾
 وَجَعَلْنَا فِيهَا غُلَّةً لِّغُلَامٍ وَأَعْنَابًا وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا الْخَيْثُورَ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا
 مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ تَذَكِيرٌ لِلْكَفَّارِ بِبَعْضِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمُ الَّتِي لَوْ تَأَمَّلُوهَا
 لَكَانَتْ مُوجِبَةً لِلشُّكْرِ وَالْإِيمَانِ بِوُجُودِهِ وَبِالْبَعْثِ الَّذِي يُنْكِرُونَهُ فَإِنَّهُ مِنْ قَبِيلِ
 بَعْثِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَهَذَا هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَأَيَّةٌ لَهُمْ) أَيُ عِلَامَةٌ دَالَّةٌ عَلَى
 الْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ (الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ) أَيُ الْهَامِدَةِ الْخَالِيَةِ مِنَ النَّبَاتِ (أَحْيَيْنَاهَا)
 بِالْمَطَرِ (وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا) كَالْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ وَمَا يُمَاثلُهُمَا (فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ)
 لِيَعِيشُوا وَيَحْيُوا (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ) أَيُ بَسَاتِينَ (مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ)
 وَغَيْرَهَا (وَجَعَلْنَا فِيهَا) أَيُ الْأَرْضِ لِلشُّرْبِ وَالسَّقْيَا (مِنَ الْعُيُونِ) أَيُ عِيُونًا جَارِيَةً
 بِالْمِيَاهِ الْمَذْبُوبَةِ وَمِنْ تَشْمَلِ الْأَنْهَارُ وَالْآبَارُ (لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ) أَيُ النَّبَاتِ
 الْحَاصِلِ بِالْمَاءِ (وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ) يَعْنِي بِالزَّرْعَةِ وَالْفَرَاسَةِ وَقِيلَ مَا نَافِيَةٌ أَنْ
 يَكُونَ ذَلِكَ النَّبَاتُ مِنْ عَمَلِهِمْ إِذْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَمَا نَبَتُ وَلِذَلِكَ قَالَ (أَفَلَا
 يَشْكُرُونَ) نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِإِنزَالِ الْمَطَرِ وَإِخْرَاجِ النَّبَاتِ وَيَعْلَمُوا أَنَّهُ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ ؟

سُبْحَانَ اللَّهِ خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثَبِّتُ الْأَرْضُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ
 وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

(سُبْحَانَ اللَّهِ) تَنْزِيهِ اللَّهِ مِمَّا يَعْتَقِدُهُ الْكَفَّارُ وَالْمُشْرِكُونَ فِي حَقِّهِ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ
 (الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ) أَيُ أَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ (كُلَّهَا) مِنْ حَيَوَانَ وَنَبَاتٍ وَجَعَلَهَا

أَزْوَاجًا ذَكَرًا وَأُنْثَى (مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ) يَعْنِي النَّاسَ. فَهِيَ جَمِيعًا ذَكَرٌ وَإِنَاثٌ تَتَزَوَّجُ وَتَتَوَالَدُ كَمَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) وَهِيَ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ تَدُلُّ عَلَى عَجْزِ الْخَلْقِ عَنْ إِيجَادِ شَيْءٍ بِاسْتِقْلَالٍ. وَأَفْتَقَارِهِمْ إِلَى الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النِّشْأَةِ الْأُولَى وَالْآخِرَةِ. (وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْأُخْرَى وَالْأَكْوَانِ الْغَيْبِيَّةِ الَّتِي لَا يَرَوْنَهَا.

وَأَيُّ لُطْفٍ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾

وَمِنْ أَدَلَّةِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى وَبَدِيعِ حِكْمَتِهِ مَا أَشَارَ لَهُ بِقَوْلِهِ (وَأَيُّ لُطْفٍ اللَّيْلِ) الْمُظْلِمِ (نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ) أَيَّ نَجْرَدُهُ وَنَنْزَعُهُ مِنْهُ (فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ) أَيَّ فَإِذَا النَّاسُ الَّذِينَ كَانُوا مُنْتَشِرِينَ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ يَلْفَهُمُ اللَّيْلُ وَيَسْكُنُونَ فِي ظِلْمَتِهِ. نَتِيجَةُ لِدَوْرَانِ الْأَرْضِ حَوْلَ مَحْوَرِهَا فِي مُقَابَلَةِ الشَّمْسِ. فَالْجُزْءُ الَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ نُورُهَا يَتَجَلَّى فِيهِ النَّهَارُ حَتَّى إِذَا أُسْتَدْبِرَهَا غَشِيَ اللَّيْلُ. وَهَكَذَا دَوَائِلُ كُلِّ يَوْمٍ. فَالضِّيَاءُ عَارِضٌ وَالظَّلَامُ هُوَ الْأَصْلُ وَمِنْ ثَمَّ كَانَ النَّهَارُ مُنْسَلَخًا مِنَ اللَّيْلِ كَمَا عَبَّرَتْ آيَةُ الْكَرِيمَةِ.

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا تِلْكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾

وَهَذِهِ آيَةُ أُخْرَى تَدُلُّ عَلَى وَجُودِ الْخَالِقِ وَعَظِيمِ تَدْبِيرِهِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَالشَّمْسُ) هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ وَاللَّيْلُ أَيُّ وَآيَةُ لُطْفِ الشَّمْسِ (تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا) قَالَ ابْنُ جَزَى أَيُّ لِحْدٍ مُوقَّتٍ تَنْتَهِي إِلَيْهِ مِنْ فَلَكِهَا. وَهُوَ نَهَايَةُ جَرِيهَا إِلَى أَنْ تَرْجِعَ فِي الْمُنْقَلَبِينَ، الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ. وَقِيلَ مُسْتَقَرُّهَا وَقُوفُهَا كُلُّ وَقْتٍ زَوَالٍ. بِدَلِيلِ

وَقُوفِ الظِّلَّ حِينَئِذٍ وَقِيلَ مُسْتَقَرُّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ تَكُونُ هَا وَهَذَا قَدَرٌ مُشْتَرِكٌ
 بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ بَاقِي النُّجُومِ بَلْ عَمُومِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَكِنَّهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ يُفِيدُ أَنَّهَا
 مُتَحَرِّكَةٌ لَا سَاكِنَةٌ كَمَا كَانَ يُظَنُّ، وَإِنَّمَا عَرَفَ النَّاسُ هَذَا فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، وَفِي
 الصَّحِيحِ أَنَّ مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ حَيْثُ تَسْجُدُ عِنْدَ كُلِّ غُرُوبٍ، وَهَذَا أَمْرٌ غَيْبِيٌّ
 لَا يُدْرِكُهُ النَّاسُ وَلَا يُعَارِضُ مَا تَقَرَّرَ فِي الْجُغَرَفِيَّاتِ لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِالْحِكْمَةِ الْغَائِبَةِ مِنْ
 حَرَكَتِهَا لَا بِالظُّوْهِرِ الْمُرْتَبَةِ عَلَى هَذِهِ الْحَرَكَةِ، قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : (وَإِنْ مِنْ
 شَيْءٍ إِلَّا لَيْسَ بِعَبْدِهِ).

وَالْفَرَقَ دَرَجَةُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ③٩

وَأَيَّةُ الْقَمَرِ هِيَ مِثْلُ آيَةِ الشَّمْسِ تُدَلُّ عَلَى تَدْبِيرِ الْإِلَهِيِّ حَكِيمٍ كَمَا قَالَ
 تَعَالَى (وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ) أَيَّ قَدَرْنَا سِيرَهُ (مَنَازِلَ) يَنْتَقِلُ فِيهَا مِنْ مَنْزِلَةٍ إِلَى
 مَنْزِلَةٍ حَيْثُ يُبْدُو، هَلَاكًا إِلَى أَنْ يَصِيرَ بَدْرًا كَامِلًا ثُمَّ يُعُودُ فَيَتَنَاوَسُ عَلَى
 الْعَكْسِ مِنْ سِيرَتِهِ الْأُولَى وَهُوَ قَوْلُهُ (حَتَّى عَادَ) أَيَّ صَارَ (كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ)
 أَيَّ غَضِنَ النَّخْلَةَ الْبَالِيَةَ فِي صُفْرَتِهِ وَتَقَوَّيْهِ، وَمِنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ مَعْرِفَةُ السِّنِينَ
 وَالْحِسَابِ عَلَى مَا جَاءَ فِي آيَةِ الْبُقُرَةِ «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ
 لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ» وَآيَةُ يُوسُفَ «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا
 وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ» وَغَيْرُهُمَا.

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْيَلُ سَابِقُ النَّجْمِ وَكُلُّ
 قَلْبٍ يَنْبَغِي ④٠

هَذِهِ حَقِيقَةٌ تَتَقَرَّرُ بِمُقْتَضَى أَنْ لِكُلِّ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ فَلَكًا. أَيْ مُدَارًا.
يُخَصُّهُ فَحِينَئِذٍ (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي) أَيْ يَصِحُّ (لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ) أَيْ تَلْحَقَهُ
فَتَحْتَمِلُهُ مَعَهُ لَيْلًا. لَا سَيَّمَا وَهِيَ تَقَطُّعُ الْفَلَكَ فِي سَنَةٍ وَهُوَ يَقْطَعُهُ فِي شَهْرٍ (وَلَا
الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ) قَبْلُ انْقِضَائِهِ فَيَأْتِي فِي أَثْنَاءِ النَّهَارِ نَتِيجَةً لِمَا ذُكِرَ مِنْ تَغَايُرِ
فَلَكَيْهِمَا وَسَيَرِهِمَا (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) يَعْنِي الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْأَرْضُ الَّتِي
عَلَيْهَا يَتَعَاقَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَذَكَرَ الضَّمِيرُ وَجَمَعَهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذِهِ الْكَوَاكِبِ
الَّتِلَاثَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْأَرْضِ الْمَفْهُومَةِ مِنَ السِّيَاقِ. وَنَزَّلَهَا مَنَزِلَةَ الْعُقْلَاءِ فَإِنْ
حَرَكَاتِهَا شَبِيهَةٌ بِتَحَرُّكَاتِ الْعُقْلَاءِ. وَفِي الْآيَةِ إِعْجَازٌ عِلْمِيٌّ لِمَا تُثَبِّتُهُ مِنْ دَوْرَانِ
لِهَذِهِ الْكَوَاكِبِ فِي أَفْلَاقِهَا وَهُوَ مَا لَمْ يَتَحَقَّقْ لغيرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا حَدِيثًا

وَأَيَّةٌ لَهُمْ: أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْهُورِ ④١ وَخَلَقْنَا لَهْمُ
مِثْلَهُ مَا يَرْكَبُونَ ④٢ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ④٣ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ④٤

وَهَذِهِ آيَةٌ أُخْرَى عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى وَحُكْمَتِهِ فِي خَلْقِهِ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ وَتَسْخِيرِ
الْمَكُونَاتِ لَهُمْ. فَإِنَّهُ جَعَلَ الْفَلَكَ وَالسَّمَاءَ تَجْرِي عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ بِتَدْيِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ
فَتَقَرَّبُ الْأَبْعَادُ وَتَنْقُلُ الْعِبَادُ وَالْأَزْوَادُ بَيْنَ مُخْتَلَفِ الْبِلَادِ وَهُوَ قَوْلُهُ: (وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَا
حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكَ الْمَشْهُورِ) الْمَمْلُوءِ. وَالْمُرَادُ بِهِ سَفِينَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ
السَّلَامُ. وَيَعْنِي بِذُرِّيَّتِهِمْ آبَاءَهُمُ الَّذِينَ تَنَاسَلَتْ مِنْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلَوْلَا
ذَلِكَ لَهَلَكُوا فِي الطُّوفَانِ وَلَمْ تَبْقَ نَسَمَةٌ حَيَّةٌ مِنَ الْخَلِيقَةِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ
(وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ) أَيْ مِثْلَ سَفِينَةِ نُوحٍ فِي رُكُوبِ الْبَحْرِ وَنَقْلِ
الْأُمَمَةِ وَالنَّاسِ. فَهِيَ أَمْتِدَادٌ لَا يَتَبَرَّعُ عَلَيْهَا السَّلَامُ (وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ) وَنَسْنَعُ الْآيَةَ
بِحَبَبِ لُطْفِنَا وَإِيقَافِ تَدْبِيرِنَا (فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ) أَيْ فَلَا مَفِيتَ لَهُمْ حِينَئِذٍ

وَلَا تُنْقِذْ كَمَا قَالَ (وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ) كَمَا يَقَعُ أَحْيَانًا بِرَغْمِ الْإِحْتِيَاطَاتِ
وَالْإِسْتِعْدَادَاتِ الْهَائِلَةِ (إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا) أَسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ تَقْدِيرُهُ: لَكِنْ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
نُنَجِّيكُمْ وَنُسَلِّمُكُمْ مِنَ الْفُرْقِ إِلَى بُلُوغِ أَجَلِكُمْ وَهُوَ مُعْنَى (مَتَاعًا إِلَى حِينٍ).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾
وَمَا تَأْتِيهِمْ قَرْيَةٌ إِلَّا مِّنْ آيَةٍ مِّنْ رَبِّهِمْ وَالْكَافِرِينَ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾

الضَّمِيرُ فِي (لَهُمْ) لِلْكَافِرِ عُمُومًا وَالْمُخَاطَبِينَ مِنْهُمْ وَهُمْ قُرَيْشٌ خُصُوصًا
(اتَّقُوا) أَيِ أَحْذَرُوا (مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ) أَيِ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
(لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أَيِ تَنْجُونَ مِنَ الْعَذَابِ بِإِلَافٍ يَمَانٍ. وَجَوَابٌ إِذَا مَحْذُوفٌ أَيِ
أَعْرَضُوا كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا بَعْدَهُ. (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ) تَدْلُهُمْ
عَلَى التَّوْحِيدِ وَصَدَقَ رِسَالَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِلَّا كَانُوا عَنْهَا
مُعْرِضِينَ) مُدْبِرِينَ لَا يَسْتَفِيعُونَ بِهَا وَلَا يَهْتَدُونَ.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِي نَكْفُرُ بِهِ لِيُنْزِلَ
عَلَيْنَا الْكُتُبَ مِمَّا رَزَقَنَا اللَّهُ الْكَتُوبَ إِنَّا نَكْفُرُ بِهِ إِلَّا بِظُلْمٍ قَلِيلٍ ﴿٤٧﴾

هَذَا مِنْ جُمْلَةِ ضَلَالِهِمْ وَعَدَمِ تَذَبُّرِهِمْ فِي آيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ (إِذَا قِيلَ لَهُمْ)
يَعْنِي سَمِعُوا مَا فِي الصَّدَقَةِ وَالْإِنْفَاقِ عَلَى الْفُقَرَاءِ مِنْ فَضْلِ وَثَوَابٍ. مِمَّا يُوجِبُ
إِلَى الْمُؤْمِنِينَ. (أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ (قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا)
أَسْتِهْزَاءٌ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الْكَرِيمَةِ وَاحْتِجَاجًا لِبُخْلِهِمْ وَأَنَانِيَّتِهِمْ (أَنْطَعِمُ مَنْ
لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ) وَهَذَا مِنْ تَسْوِيلِ الشَّيْطَانِ لَهُمْ وَإِقْحَامِ أَنْفُسِهِمْ فِي الْمَغِيبِ

مِنْ مَشِيئَةِ اللَّهِ... وَمَا يُزَالُ هَذَا الْقَوْلُ يُرَدُّهُ بَعْضُ الْمُفْتُونِينَ مِنْ ضَعْفِ الْإِيمَانِ
اِقْتِدَاءً بِأَسَانِيدِهِمُ الْمَلْحِدِينَ (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) أَيْ مَا أَنْتُمْ بِقَوْلِكُمْ
هَذَا لَنَا إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فَوَصِّفُوا الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَهْدِينَ بِمَا هُوَ وَصْفٌ لَهُمْ مِنَ
الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ إِمْعَانًا فِي الْمَخَالِفَةِ وَالْعِنَادِ.

وَيَقُولُونَ قَبْلَ هَذَا الْوَعْدِ كُنْتُمْ ضَعِيفِينَ ④٨ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صِغَةً

وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ④٩ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً

وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ⑤٠

تَجَرَّبَ هَذِهِ الْآيَةُ عَنِ اسْتِعَادِ الْكُفَّارِ لِقِيَامِ السَّاعَةِ وَالْبَيْتِ وَالْحِسَابِ حِينَ
يَقُولُونَ (مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) أَيْ فِي أَيِّ وَقْتٍ سَيَكُونُ وَهُوَ سُؤَالٌ يُنْمُ عَنْ شَكِّهِمْ
وَتَكْذِيبِهِمْ يُوجِّهُونَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فَيَقَعُ الْجَوَابُ بِمَا يَقْطَعُ
لَجَاجِهِمْ وَيَخِصِّمُ اعْتِرَاضَهُمْ (مَا يَنْظُرُونَ) أَيْ يَنْتَظِرُونَ (إِلَّا صِغَةً وَاحِدَةً) وَهِيَ
نَفْخَةُ الصُّعْقِ (تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ) أَيْ فَجَاءَتْ عَلَى حِينٍ سَيَكُونُونَ فِي حَدِيثِ
وَخِصَامٍ فَلَا يَشْعُرُونَ إِلَّا وَقَدْ ذُوبَ بِهِمْ وَصَرَعُوا (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا
إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ) أَيْ فَلَا يَمْلِكُونَ مِنْ أَمْرِهِمْ شَيْئًا إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَا مَنْ
كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُوصِيَ فِي مَالِهِ أَوْ شَأْنِهِ بِأَمْرٍ يَجِدُ وَقْتًا لِذَلِكَ، وَلَا مَنْ كَانَ خَارِجًا
غَائِبًا عَنْ أَهْلِهِ يَرْاجِعُ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ يَهْلِكُونَ فِي مَكَانِهِمْ مِنْ غَيْرِ إِمْعَالٍ.

وَنَجْعِدُ إِلَى الصُّورِ فَإِنَّهُمْ قَدْ لَاحِظُوا أَنَّا لَمْ نَبْعَثْ رَسُولًا ⑤١ قَالُوا

يَا بَنِي آدَمَ بَعَثْنَا مِنْ قَبْلِكَ آدَمًا وَعَادًا وَنُوحًا وَآلَ هَارُونَ وَمُوسَى وَآلَ هَارُونَ ⑤٢

إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صِغَةً وَاحِدَةً فَإِنَّهُمْ جَمِيعٌ لَمْ يَنْتَظِرُوا ⑤٣

وَتُصَوِّرُ الْآيَةَ الْكُرَيْمَةَ الْبُعْثُ بَعْدَ الصَّعِقِ كَأَنَّهُ أَمْرٌ وَاقِعٌ مُشَاهِدٌ إِذْ تُعْبَرُ
 بِالْفِعْلِ الْمَاضِي (وَتُنْفَخُ فِي الصُّورِ) وَهِيَ نَفْخَةٌ الْإِحْيَاءِ وَالْبُعْثِ مِنَ الْقُبُورِ
 وَالصُّورُ الْقَرْنُ الَّذِي يُنْفَخُ فِيهِ وَهُوَ هُنَا عَلَى قَدْرِ الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ، وَالنَّفْخُ يَقَعُ مِنْ
 الْمَلِكِ الْمُكَلَّفِ بِذَلِكَ.. (فَإِذَا هُمْ) يَعْنِي الْمَقْبُورِينَ عُمُومًا (مِنْ الْأَجْدَاثِ) أَيِ
 الْقُبُورِ (إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ) أَيِ يَخْرُجُونَ كَمَا يَخْرُجُ النَّسْلُ مِنَ الْأَرْحَامِ
 (وَقَالُوا) يَعْنِي الْكُفَّارَ (يَا وَيْلَنَا) أَيِ يَا هَلَاكُنَا. فَأُولَ مَا بِهِ يَنْطِقُونَ التَّائِبُ
 وَالنَّدَمُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ (مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا) أَيِ الْمَكَانِ الَّذِي كَانُوا دُفِنُوا
 فِيهِ (هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ) يَقُولُونَ ذَلِكَ مُقَرِّينَ بِمَا كَانُوا
 بِهِ كَافِرِينَ. وَقِيلَ إِنَّهُ يُقَالُ لَهُمْ مِنْ قَبْلِ الْمَلَائِكَةِ وَالْمُؤْمِنِينَ (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً
 وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) يَعْنِي أَنَّ قَضِيَّةَ الْبُعْثِ وَالنُّشُورِ الَّتِي
 تَمَارُونُ فِيهَا كَيْسَتْ (إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً) كَمَا تَقْدَمُ (فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ) أَيِ عُمُومُ
 الْمَوْتَى (لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) أَيِ حَاضِرُونَ عِنْدَنَا يَنْتَظِرُونَ مَا بِهِ وَعِدُوا فَهُوَ كَقَوْلِهِ
 تَعَالَى: «وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ».

بِالْيَوْمِ لَا تَكْلَمُ بِنَفْسٍ شَيْئًا وَلَا تَحْزَنُ إِلَّا مَا كُنْتَ تَعْمَلُونَ 54 إِنْ أَحْبَبْتَ
 الْجَنَّةَ الْيَوْمَ فِي شُغْلِكَ كُفِّرْ 55 لَهْمُ رَأْسٍ وَاجْهَرْ بِكُلِّ عِلْمٍ
 أَلَا رَأَيْكَ تَتَكَبَّرُ 56 لَهْمُ رِيْقَةٍ فَاكْطَعْ وَلَهْمُ مَا يَدْعُونَ 57 سَلِّمْ
 فَوَلَا قَرْنَ رَبِّهِمْ 58 وَافْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْفَجْرُورُونَ 59

لَنَا ذَكَرُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا يَحْصُلُ لِلْكَفَّارِ مِنَ الْجَزَعِ عِنْدَ الْبُعْثِ وَمَوَاجَهَةِ
 الْمَصِيرِ الَّذِي كَانُوا يَكْذِبُونَ بِهِ، أَتَبَعَ ذَلِكَ بِمَوْقِفِ الْعَدْلِ الَّذِي يَشْمَلُ الْخَلْقَ جَمِيعًا،

فَقَالَ ﴿فَالْيَوْمَ﴾ أَيَّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أَيَّ لَا يُعَامَلُ أَحَدٌ بِظُلْمٍ
 مِمَّا كَانَ شَأْنُهُ ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ﴾ مَعَشَرَ الْعِبَادِ ﴿إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا
 إِنَّ خَيْرًا فَخِيرًا وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا فَهِيَ مِثْلُ قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿وَنُضْعُ
 الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ
 حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ وَيَقُولُ تَعَالَى تَرْغِيبًا فِي
 الْإِيمَانِ وَالَّذِي يَلْقَى أَصْحَابَهُ الْجَزَاءُ الْحَسَنَ وَتَرْغِيمًا لِلْكَفَّارِ الَّذِينَ يُعَامِلُونَ بِعَكْسِ
 ذَلِكَ ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ﴾ أَيَّ فِي الْيَوْمِ الْمَذْكُورِ ﴿فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ﴾
 أَيَّ مَتَفِكِهُونَ بِمَا يَشْغُلُهُمْ عَنِ النَّارِ وَالْعَذَابِ وَمَا أَهَمَّ الْكَفَّارَ مِنْ سُوءِ الْمَصِيرِ كَمَا
 جَاءَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَى أُولَئِكَ عَنْهَا
 يُبْعَدُونَ، لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ
 خَالِدُونَ، لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي
 كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ يَعْنِي ظِلَالِ الْجَنَّةِ ﴿وَعَلَى
 الْأَرَائِكِ﴾ جَمْعُ أَرِيكِةٍ وَهِيَ مَقَاعِدُ مُرِيحَةٍ مِثْلُ التَّخَوِثِ ﴿مُتَّكِئُونَ﴾
 مُضْطَجِعُونَ ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ يَعْنِي مِنْ كُلِّ نَوْعٍ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ كَمَا
 فِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ أَيَّ مَا يَتَمَنَّوْنَ وَيَطْلُبُونَ، كُلُّهُ مُبْدُولٌ لَهُمْ
 حَاضِرٌ لَدَيْهِمْ ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ أَيَّ وَيُلْقُونَ تَحِيَّةً مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
 هِيَ سَلَامٌ دَائِمٌ وَتَبْعِيمٌ مُقِيمٌ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا
 الْمُجْرِمُونَ﴾ أَيَّ وَيُقَالُ لِلْكَفَّارِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ انْفَرَدُوا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَكُونُوا عَلَى
 حِدَّةٍ مُعْزُولِينَ.

اَلَمْ اَعْمِدْ اِلَيْكُمْ يَبْنَىءِ اَذْمُرْ اَلْاَتْعَبْدُ وَالسَّيْطَرَانَهُ لَكُمْ

عَمْدٌ وَتَبْنِيٌّ ٦٠ وَالْاَتْعَبْدُ وَهِيَ اِحْرَاطٌ مُسْتَفِيمٌ ٦١ وَلَقَدْ اَخْلَسْنَاكُمْ

جِبَلًا كَثِيرًا اَقْلَمْتُمْ تَكُونُوا تَغْفِلُونَ ٦٢

هَذَا تَقْرِيعٌ مِّنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكَفَّارِ الَّذِينَ يَعَصُونَ وَيُطِيعُونَ الشَّيْطَانَ مَعَ أَنَّهُ أَكْبَرُ عَدُوَّهُمْ كَمَا قَالَ ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ اسْتَفْهَامٌ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ أَيْ أَلَمْ أَمُرْكُمْ عَلَى لِسَانِ أَنْبِيَائِي وَرُسُلِي ﴿يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ أَيْ لَا تُطِيعُوهُ ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تَعْلِيلٌ لِّعَدَمِ طَاعَتِهِ لِأَنَّ الْعَدُوَّ لَا يَبْغِي لِعَدُوِّهِ إِلَّا الشَّرَّ ﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي﴾ بِالتَّوْحِيدِ وَالطَّاعَةِ ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ لَوْ أَنَّكُمْ اتَّبَعْتُمُوهُ لَنَجَوْتُمْ مِّنَ الْعَذَابِ ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا﴾ أَيْ خَلَقًا ﴿كَثِيرًا﴾ فَلَمْ تَتَّعِظُوا بِذَلِكَ وَتَتَّعَبَرُوا ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أَيْ أَفَمَا كَانَ لَكُمْ عَقْلٌ حِينَ قَدَّمْتُمْ طَاعَةَ الشَّيْطَانِ عَلَى طَاعَةِ الْخَالِقِ، فَيُفِيدُ إِقَامَةَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ۚ الْإِزَامُ بِبَيِّنَةٍ مَا عَمِلُوا.

قُلْ هَٰذَا جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اخْلُوعُوا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ

تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَمَسْنَا عَٰلَمَ الْغَيْبِ مِنْهُم فَمَا اسْتَبَقُوا

الْخِرَاجَ بَأَنَّا يُبْمِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَائَتِهِمْ فَمَا

اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

يَعْنِي وَيَقَالُ لَهُمْ ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بِهَا وَيَحَذِّرُكُمْ اللَّهُ مِنْهَا وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿اِصْلُوهَا الْيَوْمَ﴾ أَيْ ذُوقُوا حَرَّهَا الْآنَ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أَيْ بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أَيْ نَقْنَعُهُمْ مِّنَ الْكَلَامِ ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ جَوَارِحُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَتُظْهِرُ لَهُمْ قُدْرَةَ اللَّهِ فِي إِسْكَاتِ أَلِهِ النَّطْقِ وَهِيَ اللِّسَانُ وَإِنطَاقُ الْأَعْضَاءِ الَّتِي لَمْ يَكُنِ النَّطْقُ مِنْ شَأْنِهَا، وَلِذَلِكَ يَقُولُونَ كَمَا فِي آيَةِ أُخْرَى ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟ قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ

كُلِّ شَيْءٍ ﴿٦٥﴾ وَيَقَعُ هَذَا بَعْدَ أَنْ تَشْهَدَ عَلَيْهِمُ السِّتَةُ فَيُنْكِرُونَ مَا شَهِدَتْ بِهِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ هَذَا خِطَابٌ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ وَتَهْدِيدٌ لَهُمْ بِالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، فَمَعْنَاهُ لَوْلَا حِلْمُنَا وَإِمَهَالُنَا لَهُمْ لَأَعْمَيْنَاهُمْ، قَالَطَمَسَ عَلَى الْأَعْيُنِ هُوَ الْقَمَى ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أَيِ ابْتَدَرُوا الطَّرِيقَ ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ أَيِ فَمِنْ أَيْنَ لَهُمْ إِذَنْ أَنْ يَرَوْا الطَّرِيقَ، كَذَلِكَ هُمْ عَمَى الْبَصِيرَةِ فَلَا يَرَوْنَ سَبِيلَ الرِّشَادِ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ فَرْدَةً وَخَنَازِيرَ أَوْ حِجَارَةً كَمَا فَعَلْنَا بِالْمُكْذِبِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ أَيِ لَفَعَلْنَا ذَلِكَ بِهِمْ عَلَى مَا يَكُونُونَ عَلَيْهِ فِي مَنَازِلِهِمْ ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ بَعْدَهَا ﴿مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أَيِ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَهَابٍ وَلَا مَجِيءٍ.

وَمَنْ تَعَمَّرَهُ نَكَسَهُ بِالْمَلَأَ أَيْ لَا تَغْفَلُوا ﴿٦٨﴾

الْمَعْنَى أَنَّ التَّعْمِيرَ أَيْ إطَالَه الْعُمُرَ يَرُدُّ الْإِنْسَانَ عَلَى عَقْبِهِ فَيَعْدِلُ بِالْقُوَّةِ ضَعْفًا وَيَالِشَّبَابٍ هَرَمًا كَمَا جَاءَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : ﴿إِلَهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ وَهَذَا هُوَ أَرْدَلُ الْعُمُرِ الَّذِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، يَسْتَعِيدُ بِاللَّهِ مِنْهُ وَقَالَ فِيهِ تَعَالَى : ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ وَمُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا ظَاهِرَةٌ مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا كَالْمَثَلِ لِتَقْرِيبِ مَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ مِنَ الطَّمَسِ وَالْمَسْخِ فَإِنَّ مَنْ يَتَعَمَّرُ الْمَخْلُوقَ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى خَالَةِ الْإِنْتِكَاسِ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ. وَلِهَذَا قَالَ : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وَمَا عَلَّمَنَّا الشَّجَرَ مَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾
لِتَذَكَّرَ مِنْكُمْ كَارِهُتَا وَيُؤْتِيَ الْفُلُ عَلَى الْجُبَيْرِ ﴿٧٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى رَدًّا عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ قَالُوا فِي النَّبِيِّ ﷺ، إِنَّهُ شَاعِرٌ، وَإِنْ مَا
جَاءَ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ هُوَ مِنْ قَبِيلِ الشَّعْرِ ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أَيُّ مُحَمَّدًا ﴿الشَّعْرَ وَمَا
يَنْبَغِي لَهُ﴾ أَيُّ وَمَا يَلِيْقُ بِهِ، لِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَدَاعِيَةٌ إِلَى دِينِهِ الْحَقِّ، فَلَا يُنَاسِبُهُ
أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا بِهِمْ فِي أَوْدِيَةِ الْخِيَالِ وَيَقُولُ مَا يَصِحُّ وَمَا لَا يَصِحُّ. ﴿إِنْ هُوَ﴾
أَيُّ الْقُرْآنُ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أَيُّ تَذْكِيرٌ لِلنَّاسِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ مَعْرِفَةِ الْخَالِقِ وَسُبُلِ
الْبِرِّ وَالْخَيْرِ وَالتَّقْوَى وَالْعَمَلِ النَّافِعِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أَيُّ
كِتَابٌ مُبِينٌ لِكُلِّ شَيْءٍ مِمَّا فِيهِ صَلَاحُ الْعِبَادِ ﴿لِتُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أَيُّ تَعْلِمَ بِهِ
يَا مُحَمَّدُ وَقُرِئَ لِيُنذِرَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالضَّمِيرِ يَرْجِعُ حِينَئِذٍ الْقُرْآنُ ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أَيُّ
حَتَّى الْقَلْبِ فَهُوَ الَّذِي يُنْفَعُ فِيهِ الْإِنْذَارُ وَالتَّذْكِيرُ وَأَمَّا مَيِّتُ الْقَلْبِ فَهُوَ لَا يَفْهَمُ
خُطَابًا وَلَا يُعْنِي بِتَفْهِيمِهِ وَمَوْتَى الْقُلُوبِ هُمُ الْمُقْصُودُونَ بِقَوْلِهِ ﴿وَيَحَقِّقُ الْقَوْلُ﴾
أَيُّ وَتَقُومُ الْحُجَّةُ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا
مَالِكُونَ ۖ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۖ وَلَهُمْ
فِيهَا مَنَاقِعٌ وَمِمَّا يَرْيَبُونَ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۚ

يَذْكُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيَقَرُّ عِبَادَهُ فِي سِيَاقِ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى الْجَا حِدِينَ
مِنْهُمْ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مِنْ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ الدَّاجِنَةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ جُزْءًا مِنْ حَيَاتِهِمْ لَا
يَسْتَغْنُونَ عَنْهَا بِحَالٍ فَيَقُولُ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ أَيُّ مِنْ أَجْلِهِمْ ﴿وَمِمَّا
عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أَيُّ صَنَعْتُهُ وَأَبْدَعْتُهُ مِثْلَ عَمَلِنَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى خَلْقِنَا إِيَّاهُمْ
﴿أَنْعَامًا﴾ وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ أَيُّ مُتَصَرِّفُونَ فِيهَا كَمَا
يَشَاءُونَ مَعَ أَنَّهَا وَإِيَّاهُمْ مِنْ خَلْقِنَا وَإِنْشَائِنَا فَاخْضَاعُهَا لَهُمْ هُوَ مِنْ تَفَضُّلِنَا عَلَيْهِمْ
﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أَيُّ سَخَّرْنَاهَا ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ بِفَتْحِ الرَّاءِ أَيُّ مَرْكُوبُهُمْ

﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أَيُّ مِنْ لَحْمِهَا ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كَالْجِلْدِ وَالصُّوفِ
 ﴿وَمَشَارِبُ﴾ مِنْ لَبَنِهَا جَمْعُ مَشْرَبٍ بِمَعْنَى شَرِبٍ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الْمَنِعَمَ
 الْمَتَكْرِمَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَيَحْمَدُونَهُ وَيَعْبُدُونَهُ وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا.

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ
 وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْخَضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يُحْزِنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ
 مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

الضَّيْفُ فِي ﴿اتَّخَذُوا﴾ لِلْكَفَّارِ أَيُّ جَعَلُوا لَهُمْ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ أَصْنَامًا
 أَوْ كَوَاكِبَ أَوْ بَشَرًا أَوْ حَيَوَانَاتٍ يَسْتَنْصِرُونَ بِهَا كَمَا قَالَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْصَرُونَ﴾ وَمَا
 الْنَصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ فَهُمْ
 أَعْجَزُ وَأَضْعَفُ مِنْ أَنْ يَنْصُرُوا أَنْفُسَهُمْ فَكَيْفَ بِالْغَيْرِ ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْخَضَرُونَ﴾
 أَيُّ وَسَيَحْضَرُونَ مَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَدْخُلُونَ النَّارَ إِذْ لَا لَهُمْ وَتَحْقِيرًا كَمَا يَحْضُرُ
 الْجُنُودُ الْمُقَهَّوَرُونَ فِي الْحَرْبِ مَعَ رُؤَسَائِهِمْ وَالْمُسْتَنْصِرِينَ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا خَاضِعِينَ
 صَاحِبِينَ ﴿فَلَا يُحْزِنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ الْخُطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ تَسْلِيَةً لَهُ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ
 وَمَا يُجَاهِرُونَ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مَا يُسِرُّونَهُ مِنْ
 مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَكَرَامَةِ الرَّسُولِ وَمَا يُعْلِنُونَهُ مِنْ خِلَافِ ذَلِكَ.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا مِنْ نُحْثَةٍ بَقِيَّةَ آدَمَ وَخَصِمَ مُوسَى ﴿٧٧﴾ وَحَرْبَ
 لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْفَهُ فَأَلْقَى تِجَّتَهُ الْعِصْمَ وَهَرَى رَمِيضًا ﴿٧٨﴾ فَلْيُحْيِهَا
 الْيَدِءُ أَ نَشَأَهَا أَوْ أَمْرًا وَهَرَى كُلَّ خَلْقٍ عَلِيمًا ﴿٧٩﴾

هَذِهِ آيَاتُ وَمَا بَعْدَهَا إِلَى آخِرِ السُّورَةِ تَتَضَمَّنُ أُدْلَةً عَلَى الْبَعْثِ وَالْخَشَرِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، وَالرَّدِّ عَلَى مُنْكَرِي ذَلِكَ مِنَ الْكُفَّارِ، وَأَوَّلُهَا التَّعْجِيبُ مِنْ
الْإِنْسَانِ الَّذِي أَصْلُهُ نُطْفَةٌ مَدِيرَةٌ كَيْفَ يَطْغَى حَتَّى يَصِيرَ يُجَادِلُ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ
تَعَالَى عَلَى إِنْشَائِهِ مَرَّةً أُخْرَى وَقَدْ أَنْشَأَهُ قَبْلُ مِنَ الْعَدَمِ فَقَوْلُهُ (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ) يَعْنِي
أَلَا يَفَكِّرُ (أَنَا خَلَقْنَاهُ) أَوَّلًا (مِنْ نُطْفَةٍ) أَيِ قَطْرَةٍ مِنْ مَنِيٍّ، وَهِيَ مَا
عَبَّرَ عَنْهُ فِي آيَةٍ أُخْرَى بِمَاءٍ مَهِينٍ (فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) يَعْنِي فَلَمْ يَنْشَبْ
أَنْ أَصْبَحَ يُجَادِلُ فِي خَلْقِهِ وَبَعْثِهِ، وَجِدَالُهُ هَذَا فِي الْحَقِيقَةِ يَتَوَّجَّهُ إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ
وَتَفْهِمِ صَلَاحِيَّتِهَا لِإِبْجَادِهِ مَرَّةً أُخْرَى. (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا) أَيِ جَاءَ بِكَلَامٍ شَبَّهِ
الْمَثَلِ فِي قِيَاسِ قُدْرَةِ الْخَالِقِ عَلَى قُدْرَتِهِ هُوَ حِينَ قَالَ (مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ
وَهِيَ رَمِيمٌ) أَيِ بَالِيَةٍ مُتَفَتِّتَةٍ، وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى مَا قَالَهُ الْعَاصِمُ بْنُ وَائِلٍ لِلنَّبِيِّ
ﷺ، وَأَتَى بِعَظِيمِ رَمِيمٍ : يَا مُحَمَّدُ مَنْ يُحْيِي هَذَا ؟ «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ
مَرَّةٍ» فَهُوَ اسْتِدْلَالٌ بِبَدْءِ الْخَلْقِ عَلَى إِعَادَتِهِ كَمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى (وَهُوَ الَّذِي
يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) (وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) أَيِ يَعْلَمُ
جَمِيعَ وَجُوهِ الْخَلْقِ وَبَدْءَ الْحَيَاةِ وَإِعَادَتَهَا مِمَّا لَا تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ مِنْهُ شَيْئًا فَحَقِّقُوا أَنَّ
تَقَرُّوا بِالْعَجْزِ وَقَلَّةِ الْمَعْرِفَةِ وَتُسَلِّمُوا لِخَالِقِ الْقُوَى وَالْقَدْرِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إِلَى جَعَلِ الْكُفْرَ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْشَرَقَتْهُ تَوَفَّيْتُمْ ۖ
أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِظَهِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى
وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝

ضَرَبَ اللَّهُ لِلْكَفَّارِ هَذَا الْمَثَلَ عَلَى وَقُوعِ الْبَعْثِ يَنْاقِضُ مَثَلَهُمُ الَّذِي ظَنُّوا أَنَّهُ
حُجَّةٌ لَهُمْ فِي تَفْيِ الْبَعْثِ وَهُوَ مَا خُودٌ مِنْ أَمْرِ مُحْسُوسٍ وَمَعْرُوفٍ لَدَيْهِمْ لَا
يَسْتَطِيعُونَ إنْكَارَهُ وَلَا الْجِدَالَ فِيهِ، وَبَيَّانُهُ كَمَا قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ أَنَّ الْكُفَّارَ
وَالطَّبَائِعِيِّينَ قَالُوا طَبَعُ الْمَوْتِ يُضَادُّ طَبَعُ الْحَيَاةِ فَكَيْفَ تَصِيرُ الْعِظَامُ حَيَّةً فَأَقَامَ

اللَّهُ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلَ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ الْمُتَمَلِّي مَاءً مَعَ مُضَادَّةِ طَبْعِ الْمَاءِ لِلنَّارِ، وَيَعْنِي بِالشَّجَرِ زِنَادَ الْعَرَبِ وَهُوَ شَجَرُ الْمَرْخِ وَالْعَفَّارُ فَإِنَّهُ يُقَطَّعُ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا غُصْنٌ أَخْضَرٌ يَقَطُرُ مِنْهُ الْمَاءُ فَيَسْحَقُ الْمَرْخُ عَلَى الْعَفَّارِ فَتَشْتَدُّ النَّارُ بَيْنَهُمَا، عَلَى أَنَّ هَذَا لَيْسَ خَاصًّا بِهِذَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ إِلَّا أَنَّهُ فِيهِمَا أَقْوَى، وَتَقُولُ الْعَرَبُ فِي كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ وَاسْتَمَجَدَ الْمَرْخُ وَالْعَفَّارُ فَبَيَّ هَذَا الْمَثَلُ الْمُنْتَزِعُ مِنْ وَاقِعِ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ عِنْدَ الْعَرَبِ الَّذِي يَلْجَأُ إِلَيْهِ يَوْمِيًّا كُلُّ مَنْ لَيْسَ مَعَهُ زِنَادٌ يُوقِدُ بِهِ النَّارَ رَدًّا عَلَى إِشْكَالِيَّةِ الْعَظِيمِ الْمُتَفَتِّتِ بِأَعْجَبٍ مِنْهُ وَأَعَزَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ يَوْمَ الْفَتْحِ نَارًا لِيُوقِدَوهَا﴾ (مَنْ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا) مَعَ اخْتِلَافِ الطَّبِيعَتَيْنِ ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ تَقْدَحُونَ وَتُورُونَ النَّارَ مِنْ سَقَطِ هَذَا الْقَدَحِ ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أَيُّ مَنْ الْإِنْسَانِيُّ وَالْبَشَرُ، فَهَذَا دَلِيلٌ آخَرٌ عَلَى إِمْكَانِ الْبَعْثِ، فَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ، لِأَنَّهَا أَعْظَمُ جِزْمًا وَأَكْبَرُ شَأْنًا وَمَنْ قَدَّرَ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ أَجْسَادَ بَنِي آدَمَ بَعْدَ فَنَائِهَا كَيْفَ وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ خَلْقَهُمْ وَأَخْرَجَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ. وَأَجَابَ سُبْحَانَهُ بِنَفْسِهِ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ فَقَالَ : ﴿بَلَى﴾ أَيُّ هُوَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ الْمَوْصُوفُ بِكَثْرَةِ الْخَلْقِ وَالْعِلْمِ الْوَاسِعِ بِكُلِّ شَيْءٍ.

إِنَّمَا أَمْرُهُ بِإِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ قَسَمُ اللَّهِ بِبَيْتِهِ

تَلْكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

ثُمَّ أَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَى أَنَّ الْأَمْرَ أَهْوَنُ مِنَ التَّصَوُّرَاتِ الَّتِي تَخْطُرُ فِي بَالِ الْمُكَذِّبِينَ الْجَاوِدِينَ، فَالْخَلْقُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَسْتَلْزِمُ أَيُّ صُعُوبَةٍ وَلَا

مَشَقَّةٌ فَأَخْرَى الْإِسْتِحَالَةَ وَعَدَمَ الْإِمْكَانِ لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِخَرْقَيْنِ رَاسَتَيْنِ هُمَا كُنْ كَمَا قَالَ
﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ أَيُّ شَأْنُهُ إِذَا تَعَلَّقَتْ إِرَادَتُهُ بِإِجْسَادِ شَيْءٍ ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ﴾ أَيُّ فَيُنْجِزُ وَيُوجِدُ كَائِنًا مَا كَانَ ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ
شَيْءٍ﴾ أَيُّ تَنْزِيهَا لَهُ عَزَّ وَجَلَّ عَمَّا يَقُولُ الْكَافِرُونَ وَمَا يَصِفُونَهُ بِهِ مِنَ الْعَجْزِ وَهُوَ
الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ أَيُّ الْقُدْرَةُ النَّامَةُ عَلَى الْأَشْيَاءِ إِجْجَادًا وَإِعْدَامًا ﴿وَالِيهِ
تُرْجَعُونَ﴾ أَيُّ تُرَدُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.